الجهود النقديّة في عصر النهضة

الشيخ نجيب سليمان الحداد (١٨٦٧– ١٨٩٩) أنموذجاً

Critical efforts in the Renaissance

Sheikh Najib Suleiman Al-Haddad (1867-1899) is a model

د. أحمد ياسين العرود
أستاذ
جامعة البلقاء التطبيقية– كلية عجلون الجامعية

Dr. ahmad yassin alourood
Assistant Professor
Al-Balqa Applied Univetrsity
Ajloun University College

Dr.ahmadyassin@bau.edu.jo

تاريخ الاستلام ٢٠٢٢/١٢/٢٧ تاريخ القبول ٢٠٢٣/٢/٥

الكلمات المفتاحية: نجيب، الحداد، عصر النهضة، مقابلة ، شعر .عربي الإفرنجي.

Keywords: Al-Haddad; Arabic Poetry; Contrast; English Poetry; Najeeb; Renaissance Era

الملخّص

مثلت الجهود النقديّة في عصر النّهضة حلقة البداية والتأسيس للدراسات النقديّة العربيّة الحديثة ومنها : الدراسات المقارنة ، وقد ساهم في هذه الجهود مجموعة من أعلام عصر النهضة، إذ تركوا بصمتهم المؤثرة في هذا المجال ،ومن هؤلاء كان نجيب سليمان الحداد ، وذلك في مقالته التي كتبها عام ١٨٩٧ بعنوان " **مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي** .

Abstract

Critical efforts in the Renaissance era represented the beginning and foundation of modern Arab critical studies, including comparative studies. Prominent Renaissance figures contributed to these efforts by leaving their imprints in this field. And among of them was Najeeb Suleiman Al-Haddad. This can be traced in his article, entitled "A Contrast between Arabic Poetry and English Poetry," written in 1897.

الجهود النقديّة في عصر النهضة
الشيخ نجيب سليمان الحداد[1] (١٨٦٧- ١٨٩٩)
أنموذجاً

١

تمهيد

مثّل عصر النهضة في الفكر العربي الحديث مرحلة الانفتاح على الآخر في شتى مجالات المعرفة الإنسانيّة ،وقد ساعد على ذلك مجموعة من الأسباب[2] كان منها: المطبعة والصحافة والبعثات التي تولّاها محمد على باشا في مصر ،ومنها حركة التحرر من نيِر الحكم التركي في بلاد الشام ،حيث أخذ الشوام على عاتقهم مقاومة الحكم التركي والتوجه إلى أوروبا من أجل استرفاد مبادئ الثورة الفرنسيّة ومحاولة تطبيقها في بلاد العرب مما دفعهم إلى الهجرة إما إلى مصر أو إلى أوروبا، وفي هذا يقول عادل الغضبان :

---

(١) ولد ببيروت في الخامس والعشرين من شهر فبراير (شباط) ١٨٦٧،وفي سنة ١٨٧٣ انتقلت أسرته إلى الاسكندريّة فانتظم في سلك مدرسة الأخوة (الفرير) وبقي فهيا سنتين ثم تركها إلى المدرسة الأمريكيّة وبدت عليه في كلتيهما مخايل النجابة والنبوغ والذكاء ، ولما اندلعت نيران الثورة العرابيّة في سنة ١٨٨٢ عاد مع اسرته إلى بيروت وأكمل علومه في المدرسة البطريركيّة للروم الكاثوليك ، وتلقي آداب اللغة العربيّة وفنونها على خاليه الشيخين خليل وإبراهيم اليازجي فبلغ منها في زمن قصير مبلغاً عظيماً دل على إنه من تلك النبعة اليازجيّة .

في سنة ١٨٨٣ عُيِّن أستاذاً للغتين العربيّة والفرنسيّة في مدرسة بعلبك وما أنْ يقضي فيها عاماً حتى يعود إلى الاسكندريّة ملبياً دعوة سليم تقلا صاحب جريدة الأهرام فانظم إلى كتّابها واستمر يكتب فيها مؤلفا ومترجماً زهاء تسع سنوات ، وفي سنة ١٨٩٤ أنشأ هو وشقيقه الشيخ أمين الحداد وعبده بدران جريدة " لسان العرب "اليوميّة وكان هو رئيس تحريرها فقضت حال الصحافة بوقف الجريدة ، فجاء إلى القاهرة وأصدرها مجلّة أدبيّة اجتماعيّة .وقد أصيب في هذا الوقت بداء الرئة فلم يمهله الداء طويلاً فعادت نفسه إلى بارئها وخبا ذلك الشعاع الساطع في اليوم التاسع من شهر فبراير (شباط) سنة ١٨٩٩ وليس له من العمر غير اثنين وثلاثين ربيعاً . (الغضبان ، عادل ، الشيخ نجيب الحداد ، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص ١٥- ١٧) .

(٢) للمزيد : ينظر: الدسوقي ، عمر، نشأة النثر العربي الحديث وتطوره، دار الفكر ، ٢٠٠٧، ص ٧- ٢٥. السيد أحمد، عزت، المدخل إلى عصر النهضة العربيّة، منشورات جامعة تشرين ، الجمهوريّة العربيّة السورية ، ٢٠٠٦.

"ومن الطبيعي أن يكون وادي النيل هو المهجر القريب الذي تطلعت إليه قلوب الشاميين؛ فالجوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأدباء الأحرار إلى الفرار من ربقة الرقيب العثماني وإطلاق أقلامهم في الوادي المكفولة فيه حرية الأقلام ...والنازحون إلى مصر من حملة الأقلام في الربع الأخير من القرن التاسع عشر لقوا في مصر أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان فشاركوا المصريين في الحياة العامة ... [١]".

ويقول عمر الدسوقي في هذا أيضاً :"وفي بلاد الشام نصارى كثيرون متعددو الطوائف ، كما أنَّ فيها نِحَلاً كثيرة إسلاميّة وغير إسلاميّة ،وقد أدى سوء الحكم التركي إلى التعصب الديني، ومناهضة هذه الطوائف بعضها بعضاً ، وكثيراً ما قامت المذابح الدامية بينهم ،وكان أفظعها مذابح سنة ١٨٦٠.وقد أدت هذه المذابح إلى تدخل الدول الغربيّة المسيحيّة لحماية الطوائف المنتسبة إليها دينيا فأنشأوا المدارس العديدة والكليّات ...[٢] "

لقد خلق هذا السياق الجديد من الأحداث والمثاقفة مع الآخر نوعاً جديداً من المعرفةِ ونوافذَ جديدة في جميع مجالات الحياة ؛ومنها الأدب الذي كان له أعلامه وتطلعاته الجديدة في أوروبا ،إذ كانت هذه التطلعات تواكب روح الحريّة الأوروبيّة الجديدة ، والأفكار المبنيّة على حرية العقل ،وكانت من هذه التطلعات الدراسات المقارنة التي أخذتْ فيها أوروبا ، ولاسيما فرنسا من أجل دراسة العلاقة بين الآدب الأوروبيّة فيما بينها من جانب ،وبينها وبين الآدب العالميّة من جانب آخر ،إذ ظهرت هناك ما أصبحت تعرف بالمدرسة الفرنسيّة في الدراسات المقارنة ورائداها بول فانْ تيغم Paul Van Tieghem، وماريوس فرانسوا غويار[٣] Marius François Guillard بعد أنْ ألَّف كل منها كتاباً بعنوان " الأدب المقارن" Littérature comparée.حيث كانت الدراسات المقارنة في أوروبا قبل تأليف كتاب فان تغيم ١٩٣١ تقوم تحت مسميات مختلفة ،بعيدة عن استخدام مصطلح الأدب المقارن[٤] ومنها مثلاً كتاب مدام دستايلMadame de Stael ١٧٦٦ - ١٨١٧ ألمانيا De (l'Allemagne) وما كتبه الأخوان شليغل (إيشنورن وبوترويك) Die Gebrüder

(١) الغضبان ، ص ٩.

(٢) الدسوقي ، المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٣) غويار، ماريوس، الأدب المقارن ،ترجمة هنري زغيب ، منشورات عويدات ، بيروت- باريس، ط١، ١٩٧٨.

(٤) تيغم، فان، الأدب المقارن ، تعريب سامي مصباح الحسامي، منشورات المكتبة العصريّة ، صيدا – بيروت ، دون تاريخ . ص٢٣.

Schlegel (Eschnoorn und Potterwick) وغيرهم . وقد أطلق بعض الدراسين على هذه الفترة المرحلة قبل المنهجيّة[١].

أمّا في بلادنا العربيّة ،فقد أخذتْ الدراسات المقارنة في عصر النهضة تشغل حيزاً من الدراسات الأدبيّة ولاسيما عند أولئك الذين اتقنوا اللغات الأجنبيّة كالفرنسيّة والألمانيّة والتركيّة والإنجليزية ،حيث عمل هؤلاء في مجال الترجمة والتأليف ومنهم: رفاعة رافع الطهطاوي، وعلي مبارك، وأديب إسحاق، وأحمد فارس الشدياق ،ونجيب الحداد ، وسليمان البستاني ، ومحمد روحي الخالدي، وقسطاكي الحمصي[٢] وغيرهم .حيث أعجب هؤلاء بما كان عند الأوروبيين في جميع مجالات الحياة كلٌّ في مجال إهتمامه ،ومن ذلك الدراسات المقارنة ؛فحاولوا استقدام هذا النوع الجديد من الدراسات كلّ حسب رؤيته وثقافته التي تحصّل عليها ،مما انعكس ذلك في تجاربهم ومدى جديتها وعمقها .

ويمكن القول: إنّ ما كان يجمع بينهم في هذا أنَّ دراساتِهم كانت تقوم على البحث عن حضور الأدب العربي في الأدب الإفرنجي ،وليس العكس أي حضور الأدب الإفرنجي في الأدب العربي ،ولعل سبب ذلك أنَّ الأدب العربي كان في الحقيقة هو المؤثّر والنموذج بالنسبة للأدب الإفرنجي بسبب أنَّ العرب كانوا في الأندلس وجنوب أوروبا مثل صقلية وغيرها ،ولم يكن الأدب الأوروبي قد تأثره الأدب العربي بعد، حيث حدث هذا التأثّر فيما بعد، أي بدءاً من عصر النهضة ، وكان من هؤلاء نجيب سليمان الحداد موضوع هذه الدراسة .

٢

نجيب سليمان الحداد (١٨٦٧- ١٨٩٩).

على الرغم من قصر العمر الذي عاشه نجيب الحداد حيث توفي عن عمر يناهز الإثنين والثلاثين عاماً ؛فإنه ترك للأدب العربي ذخيرة ستستمر عبر السنين ؛ولهذا فإنّه يمثل صورة مشرقة من صور النهضة العربيّة ،وذلك فيما قدمه من مساهمات في مجال الأدب العربي في حقبة التحوّل التي مست هذا الأدب في عصر النهضة العربيّة ،إذ قدم مجموعة من المؤلفات توزعت على التأليف الروائي ، والمسرحي والترجمة ،والنقد الأدبي،

(١) العرود ،أحمد، محاضرات في الأدب المقارن، المركز القومي للنشر ،٢٠٠٧. ص ٤٠.

(٢) للمزيد ينظر: أبو العدوس ، نموذج مبكر للنقد الأدبي المقارن في الثقافة العربية المعاصرة : قراءة لكتاب قسطاكي الحمصي "منهل الوراد في علم الانتقاد "، أبحاث اليرموك ، سلسلة الآداب واللغويات ،١٩٨٧، ص ٣٥- ٩٦.

ومنها: **الرجاء بعد اليأس**[١] **وملكة القلوب** [٢]، و **صلاح الدين الأيوبي**[٣] و **ثارات العرب**[٤] ، وترجم **الفرسان**[٥] **الثلاثة للكساندر توماس** و **غصن البان قي رياض الجنان**[٦] للفونس دو لامارتين، ولكنْ ما يهمُّنا هنا مساهمتُه في النقد الأدبي في مجال الدراسات المقارنة حيث هذا النوع من الدراسات جديد في موضوعه ومنهجه في الدراسات العربيّة في تلك الفترة ،مما يؤكد قيمة هذه المساهمة ووضعها في طريق الريادة .

لقد مثلت هذه المساهمةَ عند الحداد مقالتُه التي نشرها في مجلّة البيان التي كان يصدرها إبراهيم اليازجي ١٨٩٧– ١٨٩٨ بعنوان" **مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي** " وهي مقالة مطولة نشرت مسلسلة في ثلاثة أعداد من المجلة هي العد (٧) ،(١) سبتمبر ١٨٩٧، والعدد (٨)، (١٦) سبتمبر ١٨٩٧، والعدد (٩) ، (١) أكتوبر ١٨٩٧. حيث جاءت هذه التجربة لنجيب الحداد في الدراسات المقارنة في الأدب العربي الحديث فيما يمكن تسميته "**المرحلة ما قبل المنهجيّة** "التي يُقْصَدُ بها المرحلة التي سبقت توظيف مصطلح "**الأدب المقارن**" Comparative Literature في الدراسات العربيّة الحديثة [٧]،إذ يجد كلُّ مَن يدرس بدايات ظهور الدراسات المقارنة في هذه الفترة – القرن التاسع عشر– أنَّ الدراسين الذي بدأوا في إقامة دراسات مقارنة بين الأدب العربي والأدب الغربي(الإفرنجي) لم يستخدموا مصطلح الأدب المقارن ،بل جاءت دراساتهم ، تحت عنوانات مثل **المقابلة** ،أو**الموازنة** ،أو **الاقتباس** .ولعل هذا كان له سببه الذي يتمثل في عدم معرفة هؤلاء الدارسين في تلك الفترة مصطلح الأدب المقارن ومن هؤلاء نجيب الحداد.

إنَّ المتابع ورود هذا المصطلح Comparative Literature إلى النقد العربي ، وبداية توظيفه يجد أنَّه قد تأخَّر إلى بداية الثلث الثاني من القرن العشرين ،إذ يعود توظيف مصطلح "الأدب المقارن " كما يرى حسام الخطيب إلى ما كتبه خليل هنداوي في مجلة الرسالة التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات في العدد (١٥٣)،(٨) يونيه١٩٣٦،**تحت**

---

(١) الحداد ، نجيب، الرجاء بعد اليأس، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م.

(٢) الحداد، نجيب ، ملكة القلوب ، مؤسسة هنداوي ، ٢٠١٢م.

(٣) الحداد، نجيب ، ، صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة هنداوي ، ٢٠١٨م.

(٤) الحداد، نجيب ، ثارات العرب ، مؤسسة هنداوي ، ٢٠١٣م.

(٥) ديماس ، الكساندر ، الفرسان الثلاثة ،ترجمة نجيب الحداد ، مؤسسة هنداوي ، ٢٠١٩.م

(٦) دو لامارتين، ألفونس ، غصن البان في رياض الجنان، ترجمة نجيب الحداد، ٢٠٢٠م.

(٧) محاضرات في الأدب المقارن، ص ٨١.

عنوان "ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي اشتغال العرب بالأدب المقارن أو ما يدعوه الفرنجة Litterature Comparee في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد تلخيص وتحليل الأستاذ خليل هنداوي [١]" .

وإلى ما كتبه فخري أبو السعود في مجلة الرسالة أيضا ١٩٣٥– ١٩٣٦عند عطية عامر، حيث يرى أنَّ مصطلح الأدب المقارن "ظهر أول مرة في الدراسة الأدبيّة العربيّة في مصر على يدي أبي السعود على الرغم من أنَ أبا السعود لم يعرّف المصطلح الجديد [٢]".

إذن من خلال هذا الجدل حول تاريخ حضور مصطلح الأدب المقارن Comparative Literature في الدراسات العربيّة ، نجد أنَّ ما كان من دراسات في مجال المقارنات قبل ١٩٣٦ ،كان ينضوي تحت المرحلة ما قبل المنهجيّة التي مثلت مرحلة غياب المصطلح، وما جاء بعد ذلك يمثل المرحلة المنهجيّة ،حيث بدأت الدراسات المقارنة تستخدم مصطلح الأدب المقارن واختفى استخدام مصطلحات مثل " المقابلة "، و "الموازنة"، و "الاقتباس"، وسبب ذلك حضور المدرسة الفرنسيّة في الأدب المقارن ،واتباع الدراسين العرب لما جاءت به من منهجيّة صارمة مبنيّة على أشراط تؤمن بها هذا المدرسة ومن كان يسير في طريقها من الدراسين ،ولهذا تسمى المرحلة المنهجيّة[٣].

وفيما يتعلق بهذه المقالة لنجيب الحداد فقد كتبت تحت عنوان " مقابلة" وليس مقارنة ، حيث كان هذا المصطلح هو السائد في الدراسات التي تنتهج المقارنات في المرحلة ما قبل المنهجيّة ،فسليمان البستاني مثلاً في مقدمة ترجمته الإلياذة يستخدم مصطلح " المقابلة" عندما يقارن بين الإلياذة والشعر الجاهلي ،ونجد مصطلحي " الاقتباس " و"المقابلة" يستخدمهما محمد روحي الخالدي في مقارناته التي ضمنها كتابه" تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو"، ويستخدم قسطاكي الحمصي مصطلح " الموازنة " في مقارنته بين رسالة الغفران للمعري الكوميديا الإلهيّة لدانتي اليجيري ،كل هذا يؤكد أنَّ مصطلح الأدب المقارن لم يكن قد وصل هؤلاء الباحثين وأنهم كانوا يستخدمون ما يدل على منهجهم في البحث "المقابلة".

وعلى الرغم من اضطراب المصطلح في تلك الفترة وعدم الاتفاق بين الدارسين على مصطلح واحد فقد عكست مقالة "**مقابلة بين الشعر العربي والشعر الافرنجي** " لنجيب

---

(١) الخطيب ، حسام ، آفاق الأدب المقارن عربيّاً وعالميّاً ، رام الله، ٢٠١٨م ، الطبعة ٣، ص١٥٢.

(٢) عامر ،عطيّة ، تاريخ الأدب المقارن في مصر ، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الرابع، ١٩٨٣، ص١٣– ٣٢.

(٣) لعرود، ص ١٤٢.

الحداد شخصيّة الباحث الذي يقف على أرض صلبة من المعلومات والمنهجيّة ،وعكست ثقافة الناقد المقارن الذي يمتلك منهجيّة المقارنة التي توظّف أدواتِها من أجل الوصول إلى الحكم الذي كوّنه عن العملين أو الموضوعين المقارَن بينهما ،وعلى الرغم من أنَّ الفترة التي ظهرت فيها الدراسة كانت تفتقر إلى ما يعرف بِعُدَّةِ المقارِن ،فإنَّ الحداد بعبقريته الباحثة استطاع أنْ يقدم دراسة مقارنة سبقت عصرها وما زالت تقدم موضوعيّة البحث والدرس المقارن تحت عنوان المقابلة .ولبيان هذه الدراسة وقيمتها العلميّة والمنهجيّة في الأدب المقارن العربي في عصر النهضة ستقوم الدراسة ببيان ذلك من خلال تقييم هذه الدراسة في إطارها التاريخي والعلمي .

٣

مقالة الحداد وقصب السبق:

مما يلفت الانتباه عند مطالعة الدراسات ،التي حاولت أنْ تؤرخ حركة الأدب المقارن في الأدب العربي الحديث – ما عدا دراسة عصام البهيّ [١]– فإننا نجد التغافل عن هذه المقالة ،والابتداء بمحاولات جاءت عرضيّة وغير متكئة على رؤية واضحة فيما تذهب اليه هذه المحاولات [٢]،حيث هذه المحاولات جاءت مبثوثةً في ثنايا مؤلفاتهم ومن هؤلاء الدارسين حسام الخطيب في كتابه **آفاق الأدب المقارن عربيّاً وعالميّاً** ، إذ استعرض من هؤلاء الكتّاب أديب إسحاق(١٨٥٦-١٨٨٥) في حديثه عن السجع والإرسال ،والأسلوب واستعانته بما يقول الفرنسيون من أمثال بيفون Buffon و وغوستاف لا روميه Custave Larroumet ، وغيرهم ممن يؤكدون أنَّ الأسلوب هو الرجل ، وإنَّه شخصيٌّ كلون العين ونبرة الصوت "ولكنه في الوقت نفسه أكد تأكيداً واضحاً وكان يؤكده الأدباء العرب القدامى من أنَّ المعاني متداولة مبذولة ،وأنَّ الشأن كلُّ الشأن في حسن التأني للموضوع ،وفي جمال سبكه [٣]" ومنهم أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧) الذي تحدث عن المقدمة الغزليّة في قصيدة المدح العربية ووازن بين المدح عند العرب والإفرنج وخلص إلى وجود التفوق العددي والنوعي لشعر المدح عند العرب على شعر المدح عند الافرنج [٤].

(١) بهّي، عصام ، طلائع المقارنة في الأدب العربي الحديث ، الطبعة الأولى، دار النشر للجامعات ، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٦٥- ٨٠.

(٢) الخطيب ، ص ١١٧- ١٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

ومن هؤلاء سليمان البستاني(١٨٥٦-١٩٢٥) في مقدمة ترجمته الإلياذة ،حيث يرى الخطيب "أنّها أول محاولة جادة متخصصة في الأدب العربي الحديث للاتصال بالآداب الأوربيّة [١]"و كذلك أحمد شوقي(١٨٦٨-١٩٣٢) حيث لا أجد مسوّغاً لحسام الخطيب اختيار شوقي ناقداً مقارِناً وشوقي هو شاعر الإحياء دون منازع . ولم يُعْرَف ناقداً له مساهماته النقديّة التي يمكن أنْ تشكّل موضوعاً للدراسة

ومحمد روحي الخالدي (١٨٦٤-١٩١٣) إذ يعتبره الخطيب رائد الأدب المقارن التطبيقي ،فيقول :يمكن اعتبار كل الجهود السابقة مجرّد بواكير وتمهيدات مبدئيّة لظهور العمل الأول الذي يستحق أنْ يعتبر الرائد الأوّل للأدب العربي المقارن [٢]، ويستعرض المقالات التي نشرت في مجلّة " المقتطف [٣]" ومن الغريب بعد هذا التتبع التاريخي التوثيقي من قبل الخطيب لم يذكر محاولة نجيب الحداد (١٨٦٧- ١٨٩٩) في كتابه .

وفعلَ الشيءَ ذاته من التجاهل سعيد علوش في كتابه مدارس الأدب المقارن ،فلم يتطرق إلى مقالة الحداد على أهميتها حيث اعتبر المدرسة العربية في الأدب المقارن بدأت ١٩٤٨- ١٩٦٠ مرحلة التأسيس ، و١٩٦٠- ١٩٧٠ مرحلة الترويج ، و ١٩٧٠- ١٩٨٠ مرحلة عقد الرشد، و ١٩٥١- ١٩٨٦ مرحلة التعليم الجامعي[٤]. ومهما يكن من أمر فإنَّ هذا التقسيم عند سعيد علوش تقسيم تعسفي تجاوز الكثير من جهود البدايات المميزة عند العرب في الدراسات المقارنة ليس نقاشها هنا .

ودارس آخر هو محمد عباسة في حديثه عن تاريخ الأدب المقارن تحت عنوان " المدرسة العربية في الأدب المقارن" إذ يرى أنّ محاولات منتصف القرن التاسع عشر في العالم العربي ،يمكن عدّها من البدايات الأولى للأدب المقارن عند العرب ، ويرى أنَّ دعاة التجديد يهدفون من وراء تفتحهم على أوروبا تعريف القارىء العربي بآداب الغرب التي بلغت مرحلة متقدمة من التطور في حين عرف الأدب العربي من المحيط إلى الخليج مرحلة طويلة من الانحطاط [٥]" ،وبعد هذه الفرضيّة يبدأ محمد عبّاسة بذكر رفاعه رافع الطهطاوي (١٨٠١- ١٨٧٣)، وعلي مبارك (١٨٢٣- ١٨٩٣)، وأديب إسحاق(١٨٥٦-١٨٨٥) ،واحمد فارس

---

(١) الخطيب ، ص ١٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٧.

(٤) علوش، سعيد ، مدارس الأدب المقارن ، دراسة منهجيّة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧، ص ١٩٣- ٣٣٦.

(٥) عباسة ، محمد ،المدرسة العربيّة في الأدب المقارن، حوليات التراث، العدد١٧، جامعة مستغانم ،٢٠١٧م ص٩ .

الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧) ويعقوب صرّوف (١٨٥٢- ١٩٢٧) صاحب مجلّة المقتطف ، حيث يقوّم تجاربهم بقوله "أنّهم قاموا بمقارنة بعض مظاهر الثقافة العربية بالثقافة الغربيّة ، ودرسوا جوانب من التشابه والاختلاف بينهما ،وهذه الدراسات التي ظهرت على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعتبر البدايات الأولى للأدب المقارن عند العرب [١]"

ويقتصر محمد عبّاسة ذكره مقالة الحداد من أجل بيان أنَّ الغرض من المقالة كما يقول عباسة "وكان الغرض من وراء بحثه تعريف القارئ العربي بالثقافة الفرنسيّة التي بلغت درجة كبيرة من التقدم [٢]" .

من الواضح أنَّ هذا التقييم لمقالة الحداد من قبل محمد عباسة يعكس قراءةً غيرَ دقيقةٍ للمقالة التي بُذل الجهدُ الكبير فيها من أجل بيان مكامن الاختلاف والائتلاف بين الشعرين العربي والافرنجي عبر قراءة تاريخ الشعرين ومعرفة الخصائص الفنيّة والأسلوبية لكل منهما .وكأن محمد عباسة لم يقرأْ المقالة ولم يمرّ فيما قاله الحداد وقَصَده من مقالته عندما وضعها ،إذ يقول الحداد :

" وقد سألني من لا تسعني مخالفتُه أنْ أستعين بما توصلت إليه من قراءة الشعرين العربي والافرنجي ،على وضع مقالة أبين فيها المقابلة بينهما ،وأتكلم عن الفرق بيننا وبين أهل الغرب في معاني الشعر ،وأنواع ايراده ،وأذواق ناظميه ،وطرائق البيان في مأخذه ،وإبراز المقاصد منه وما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية والمعنوية عند كل من الفريقين[٣]"

وبعد فإنَّ تجاهل الدارسين مقالة الحداد لا يعني قلَّة أثرها ودورها في حركة النقد المقارن في الأدب العربي الحديث ، ولا سيما الدرس المقارن في عصر النهضة، بل إنَّ هذا التجاهل يشير إلى التسرّع في إطلاق الاحكام ويعني عدم القراءة الدقيقة للمساهمات المهمة في تلك الفترة، وربما يعني أيضاً أنْ من يأتي يأخذ عمن سبق دون مراجعة أو تحقيق.

ومن هنا ومن خلال اهتمامي بتاريخ الأدب المقارن والدراسات المقارنة العربية بدءاً بعصر النّهضة ومن باب وضع الأشياء في نصابها التاريخي فإنّ مقالة الحداد تستحق أنْ تدرس في السياق الذي ظهرت فيه ،وبالرجوع إلى تاريخ المقالة ١٨٩٧، فإنَّها سبقت غيرها من الدراسات التي أوقفت نفسها على دراسة العلاقة بين الأدب العربي أو موضوع منه وبين

---

(١) عباسة، ص ١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١١.

(٣) الحداد، نجيب، مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي ، مجلة البيان، العدد٧، ١٨٩٧، ص ٢٩٩.وانظر المقالة منشورة في مختارات المنفلوطي ، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ص ٢١٣- ٢٣٧.

الأدب الافرنجي ،فهذه المقالة درست الجنس الشعري عند العرب والجنس الشعري عند الإفرنج بدءاً بتاريخهما ،وحاولت الوقوف على علاقات التشابه ،والاختلاف، بينهما دون الاتكاء على فكرة التأثر والتأثير ،بل على المقابلة التي تفسّر التشابه بناء على المشترك الإنساني أو ما يعرف بدراسات التوازي Parallel studies.

لهذا، فإن هذه الدراسة ترى أنَّ مقالة الحداد يمكن أنْ تُعدَّ نقطة الريادة في الدراسات التطبيقيّة العربيّة في الأدب المقارن وليس غيرها،وذلك بما لها من قصب السبق زمنيّاً ومنهجيّاً ، حيث سبقت كتاب الخالدي **تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو** الذي يرى حسام الخطيب أنه يمثل ريادة الدراسات المقارنة العربية **التطبيقيّة** ، فالكتاب صدر أولاً باللغة الفرنسية تحت عنوان **دراسة حول فيكتور هوكو وحول الأدب عند الأوروبيين والعرب** ،ثم ترجمه روحي الخالدي إلى العربية ١٩٠٤، واختار له عنوان **تاريخ علم الأدب عن الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو**(١).وليس هذا فقط ،بل إنَّ حسام الخطيب نفسه في تقيمه كتاب الخالدي فإنه يراه مفتقداً المنهج والدقة العلميّة فيقول:" يمكن اعتبار روحي الخالدي سواءٌ من حيث السبق الزمني أم من حيث السبق العلمي رائد الأدب العربي المقارن بما تنطوي عليه كلمة الريادة من تسامح في ناحيتي المنهج والدقة العلميّة (٢)"

بهذا فإنَّ مقالة الحداد قد سبقت كتاب الخالدي – حيث كتاب الخالدي ١٩٠٤ بينما مقالة الحداد ١٨٩٧– في الظهور بما يقرب من سبع سنوات ،بالإضافة إلى أنَّ كتاب الخالدي جاء متعدد الموضوعات منها التاريخيّة ، ومنها الجغرافيّة ، وأنّ المقابلات جاءت عرضيّة ضمن حديث عن موضوع عام ،ولعل هذا ما دفع الخطيب إلى القول :

" تتوفر في كتاب (تاريخ علم الأدب) لمحات مقارنيّة شديدة الأهميّة تدل على توفر حس البحث المقارني، والذوق النقدي أيضاً لدى المؤلف، وبالطبع ليس من الضروري أن يكونَ كلُّ ما يذكره المؤلف صحيحاً أو عميقاً ،ونحن هنا لا نشير إلى دقة المعلومات وعمق التحليل بقدر ما نشير إلى الموهبة المقارنيّة اللمّاحة (٣)" .

٤

المنهجيّة العلميّة للمقالة :

مما يجعل مقالة الحداد ذاتَ أثرٍ وقيمة علميّة وبحثيّة في ريادة الدراسات المقارنيّة العربيّة في عصر النهضة البناء المنهجي العلمي للمقالة ،إذ بدأت المقالة **بتعريف الشعر**

(١) الخالدي ، روحي ،تاريخ علم الأدب عند الفرنج والعرب وفيكتور هوكو، تقديم حسام الخطيب، دمشق، ط٤، ص١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣– ١٤.

(٣) الخطيب ، ص١٣٧.

،فالدراسة التي تتمتّع بالروح العلميّة تحدد مصطلحاتِها ومفاهيمها التي تستخدمها في بحثها من أجل الوصول إلى نتائج تعتمد هذه المفاهيم في الربط بين المقدمات والنتائج ،فهو يعرِّف الشعر ،حيث هذا التعريف لم يعتمد فيه على رؤية أمة دون أخر. فهو لم يعرِّف الشعر كما هو عند العرب مثلاً " كلام موزون مقفى يدل على معنى" ،ولم يعرفه كما هو عند الافرنج ،بل عرّفه تعريفاً يشتمل على الرؤية الإنسانيّة لمفهوم الشعر الذي هو ظاهرة انسانيّة لها المشترك الإنساني وتجربة البشريّة في محاول انجاز ما يسمى الشعر ، فيقول:

" الشعر هو الفن الذي ينقل الفكر من عالم الحس إلى عالم الخيال ، والكلام الذي يصور أرقَّ شعائر القلوب على أبدع مثال ،والحقيقة التي تلبس أحياناً أثواب المجاز ،والمعنى الكبير الذي تبرزه الأفكار في أحسن قوالب الإيجاز واخفى وجدانات النّفس تتمثّل للمرء فيحسبها سهلة وهي منتهى الإبداع والاعجاز ،بل هو ألأنّةُ التي تخرج من قلب الثكلان ،والنّغمة التي يترنّح لترديدها الطروب النشوان، والشكوى التي تخفف لوعة الشاكي ،ويأنس بها المحب الولهان ،بل هو الحكمة التي يجدها الحكيم ؛فيبرزها بما يليق بها من محاسن اللفظ، ويوازن بين أجزائها موازنة تحبب ورودها على الأذن وتقرب منالها من الحفظ والجمال تراه العين ،فتحب أنْ تحفظ ذكراه ،فتبقيه صورة ماثلة يراه بها من لم يكن قد رآه [١]"

هذا التعريف كما يتضح يمهد لدراسة تبحث عن المؤتلف والمختلف في الشعر عامة، وهنا طبعاً المؤتلف والمختلف بين الشعر العربي والشعر الافرنجي .حيث هذا التعريف يمنح المقارن حريّة الابتعاد عن المحددات التي من خلالها يمكن أن يهيئ للميل نحو أحد المقارَنِين أو أنَّ يحصر نفسه في نظام جنسٍ شعري دون الآخر .

ومن خلال المنهجيّة العلميّة التي يتبنّاها الحداد يقرّ أنَّ لكل أمة نصيباً من الشعر في الإطار الذي عرَّف به الشعر فيقول:" ومن نظر في تاريخ الشعوب وسيرة الأمم لم يجد شعباً ولا أمةً بلغت غاية في المدنيّة أو تأخرت درجات في الهمجيّة ألا كان للشعر منها نصيب وللنظم بين أفرادها سجية ،يدل ذلك على أنَّ الانسان شاعر بالطبع كما هو ناطق بالطبع ،وأنَّ الطبيعة تقتضي التوازن والانتظام في عناصرها وسائر كائناتها وأحوالها [٢]" ،وهنا يظهر المقارن الحاذق الذي يبحث عن عناصر المقارنة (المقابلة) في روح الإنسان وطبعة الذي يبجث عن التواءُم مع البيئة .وكعادة الباحث الملتزم فإنَّ الحداد يبيّن **قصده** من الدراسة وموضوعها فيقول:

---

(١) البيان ، ص ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٠.

" وقد سألني من لا تسعني مخالفتُه أن أستعين بما توصلت إليه من قراءة الشعرين العربي والافرنجي ،على وضع مقالة أبين فيها المقابلة بينهما ،وأتكلم عن الفرق بيننا وبين أهل الغرب في معاني الشعر ،وأنواع إيراده ،وأذواق ناظميه ،وطرائق البيان في مأخذه ،وإبراز المقاصد منه وما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية والمعنوية عند كل من الفريقين(١)"

ويبين الحداد أيضاً أنه يعرض إلى الشعر الافرنجي الذي تُرجم الى الفرنسيّة فقط ؛لأنه يتقنها ولا يتقن غيرها من اللغات الإفرنجية ،فقد اقتصر في هذا على الشعراء الذين تُرجم شعرُهم الى الفرنسيّة وهذا يحسب للحداد من باب الأمانة العلميّة وحدود البحث الصادق يقول :

"ولكنني لست في شيء من ذلك ولا أنا في هذا البحث من حيث الفصاحة اللفظية والتراكيب اللغوية، بل أنا أتعرض للكلام فيه من حيث المعاني الشعرية التي وقفت عليها في اللغة الفرنسيّة عن جميع هذه اللغات ،وأقابل بينها وبين الشعر العربي من هذا الجانب المعنوي فقط ،أي من حيث إبراز المعاني العقليّة التي تدل على مقدرة الشاعر في لغة الفرنسيس ،التي عنها أنقل كلَّ ما رأيته من شعر الجميع، ممثلاً فيها بتمام معانيه (٢)"وتتحقق المنهجيّة العلميّة في المقالة في بناء المعلومة والوصول إلى تقديم حكم يتوافق و المعارف التي يقدمها الباحث ،ويمكن لنا الوصول إلى هذا عندما نقرأ المقالة ونستقرىء ما تقدمه من نهج علمي دقيق.

٥

نجيب الحداد وعُدَّةُ الباحث المقارن

يقول ماريوس فرانسوا غويار Maurice Francois Guyard في كتابه **الأدب المقارن** تحت عنوان عدة الباحث المقارن: " هو مؤرخ للآداب ... وهو مؤرخ للعلاقات الأدبية إذن يجب استعلامُه وافياً عن الآداب في عدة بلدان وهذه حقيقة بديهيّة... إذن يجب على المقارن أنْ يعرف عدة لغات مما يساعده على بحث أمور في لغتها الأم (٣)"

لقد كان نجيب الحداد باحثاً مقارناً يملك عدة المقارن التي حددها واحدٌ من أعمدة الدراسات المقارنة في فرنسا ماريوس فرانسوا غويار Maurice Francois Guyard ،وحيث هو مِن المدرسة الفرنسيّة في الأدب المقارن، فالحداد في مقالته هذه جسّد البحث المقارن _ على الرغم من أنه لم يستخدم مصطلح المقارنة– الذي يعكس شخصيّة باحثة تقف على أرض صلبة من المعرفة .فها هو متقنٌ اللغة الفرنسيّة ويقرأ الشعر الإفرنجي الذي تُرجم لها

(١) البيان ، ص ٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠١ .

(٣) غويار ، ماريوس فرانسوا ، المصدر نفسه، ١٩٨٨،ص١٥– ١٦.

من جميع اللغات الأخرى، ولعل اتقانه اللغة الفرنسيّة جعله يقرأ كلَّ ما له صلةٌ قويّةٌ في الشعر الإفرنجي ،ولا سيما الفرنسي منه. إذ كانت هذه القراءة مبنيّةً على هدف البحث والوعي المنهجي ، وسعة الثقافة التي تمكن الباحث من قراءة العلاقات من خلال الاسترسال ولاستقراء الدقيق، يقول:

" لقد أولعت بهذا الفن منذ الصّبا ،وصرفت له من أوقات الفراغ برهة طويلة ،قرأت فيها دواوين العرب ،ونظم المجيدين من شعرائهم ثم قرأت كثيراً من الفرنسيس ،وشعر غيرهم منقولاً إلى لغتهم كشعر اليونان ،والرومان ،والإنجليز ، والألمان والطليان وكلُّهم من شعراء الدنيا المعدودين الذين لم تترجم أقوالهم إلى اللغة الفرنسيّة إلا لشهرتها [١]"

ومن عدة المقارن كما يرى غويار أن يكون هذا المقارن مؤرّخاً ،وهذا يتطلب منه أنْ يعرف تاريخ الظاهرة أو الأعمال التي يقارن بينها، وهذا ما وُجِد في شخصيّة الحداد ،إذ يقدم تاريخ الشعر الافرنجي معتمداً رأي فيكتور هوكو في تفسير تاريخ هذا الشعر ،يقول:

" ولا بأس قبيل الدخول في هذه المقابلة التفصيليّة بين أشعارنا وأشعارهم أنْ أورد للمطالع نبذة اجماليّة عن أصل الشعر عندنا وعندهم ،ودرجات ارتقائه في سلم الكمال من حيثُ نشأتُه إلى هذا الحد وما تقلَّب عليه من أحوال المعاني وشؤونها بتقلُّب الأيام على أصحابه من الشعوب إذ هو مرآة الاخلاق ،وتاريخ ما كانت عليه الأمم في مراقي تقدمها وحضارتها إلى الآن ،وأبدأ من ذلك بما يقوله الافرنج عن أصل الشعر عندهم وكيّفيّة تدرجه ووصوله إليهم ،على سلسلة أول حلقاتها بدء الشعر في العالم منذ عهد آبائنا الأولين وآخرها ما صار إليه على عهد شعرائهم ، في هذا العصر ،نقلاً عن فيكتور هيجو أكبر شعراء الفرنسيس وأشهرهم في هذا الفن ...[٢] "

ويضمِّن الحدادُ ما قاله فيكتور هيجو عن تاريخ الشعر عند الفرنجة في مقالته كاملاً ، حيث يحدد هيجو تاريخ هذا الشعر في ثلاثة أطوار "عهد الأولين" و"عهد الخرافات" و "العهد الحاضر [٣]".

فيرى هيجو – ومثله الحداد– أن الهيئة الاجتماعيّة التي تعمر الأرض اليوم لم تكن هي نفسها التي كانت تعمرها من قبل ،بل إنَّ المجتمع الإنساني قد نشأ ودرج وشبَّ كما ينشأ الواحد من أفراده فكان صبيّاً ثم صار رجلاً ،ثم نحن الآن نشهد شيخوخته ،الكبرى ،ولقد كان قبل الأوان الذي يسميه المعاصرون عهد الخرافات أوانٌ أقدم منه يسميه السلف العهد القديم ،

(١) البيان، ص ٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

وأولى به أن يسمّى عهد الأولين وبه تحصيلٌ عندنا ثلاثة عهود للمجتمع البشري من يوم نشأته إلى هذا العصر ،ولما كان كل مجتمع له شعر بخصوصه يمتاز به عن سواه ، فقد رأينا أن نبين هنا ما كان من المزيّة الشعريّة لكل عهد من هذه العهود الثلاثة التي هي أطوار الحياة الاجتماعيّة من بدء نشوئها وهي عهد الأولين وعهد الخرافات والعهد الحاضر وهو يشمل ما كان من الأعصر الوسطى إلى الآن

فقد خُلق الأنسان جديداً في العهد الأول وخُلق معه الشعر بالطبع ،إذ هو مفطورٌ عليه فكانت اشعارهم الأناشيد والأغاني الروحيّة طبقاً لما كان حوله من عجائب الله وآياته ، ثم هو قد كان قريب العهد بصنع الله له فكان شعره الصلاة والابتهال وكان لعود النظم عنده ثلاثة أوتار لا يرن عليه سواها وهي الخالق والخليقة والنّفس ،ثم إنَّ الأرضَ كانت قفراً خالياً ينقسم سكانها إلى أسر لا إلى قبائل ويسمّى حكامها آباءً لا ملوكاً ،وكان العيش فيها على دعة وسعة ليس فيها اجتياز أرضٍ مخصوصة ولا شريعة نزاع ،بل هو عيشة رعاة رحّل هي مهدُ كلِّ حضارة ومدنيّة ، ولكنّها لم تكن في شيء منهما على الإطلاق ،وكان فكر المرء فيها كحياته أشبه بسحابة سارية تتغير أشكالها وتختلف مجاريها باختلاف ما يهب عليها من الرياح ، وهذا هو الانسان الأول بل الشاعر الأول ويدعى عهده عهد الخليقة بل الأولين[١]"

ثم يذكر العهد الثاني "عهد الخرافات" كما يرى فيكتور هوكو فيقول:

" ثم تدرج العالم في مراقي فطرته الكماليّة فاتسع نطاق العمران وامتدت حدود الاجتماع فصارت الأسرة قبيلةً والقبيلةُ أمةً وشعباً ،والتفَّ هذا المجموع على قطب واحد جعله مركز عمرانه، فنشأت من ذلك الإمارات والدول وقام المجتمع المدني مقام القبائل الراحلة واختط المصر الواسع مكان الحلّة الصغيرة ،وشيد القصر الفسيح مكان الخيمة المضروبة وبنى الهيكل العظيم في موضع خيمة الاجتماع ،وبقى أولئك الرؤوس رعاة ،ولكنّهم صاروا رعاة شعوب بدل القطعان ،واستبدلوا عصا الراعي بالصولجان ،ثم ضاقت الأرض بسكّانها وشعوبها ،فصدم بعضهم بعضاً فكانت من ذلك الحروب والغارات ، وكان الشعر مرآةً لكل تلك الأمور تنعكس عنه وتلوح صورها فيه فانتقل بها من حد بيان الأفكار إلى حد وصف الحوادث وتصويرها فانتظم في سلكِه تاريخ العصور والشعوب، والدول وتدوين المواقع، والحروب والحكايات وخرج من كل ذلك هوميروس الشاعر اليوناني المشهور وفي قصائده وحدها صور تلك الأعصر كلِّها وبيان وقائعها وحوادثها ووصف مشاهيرها وابطالها وآلهتها طبقاً لما كان عليه الشعر في ذلك الحين من الجمع بين الدين والدنيا وحقيقة التاريخ وأوهام الخرافات [٢]"

---

(١) البيان، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

ويأتي العهد الثالث "العهد الحاضر "فيقول :

"ثم دخل العالم بعد ذلك في حال جديدة هي النصرانيّة ،التي درجت من مهد الشرق ،فكان الغرب مجتمع أنوارها وهدمت مباني تلك الخرافات القديمة ،ووضعت أساس المدنية الصحيحة على آثارها ، وأعلمت الانسان أن له حياتين، حياةً فانية وحياة خالدة مثلُ حياته مؤلّف من عنصرين؛ حيوان ونطق ونفس وجسد، وفصلت بين النّسم والاجساد بعيداً ووضعت بين الخالق والمخلوق فرقاً شاسعاً، فارتقى بها عقل الانسان من حال إلى حال، وتحوّلت أخلاقه التي هي تلو عقائده من صيغة إلى صيغة أخرى وانتقل الشعر عنده من دائرة الوهم إلى دائرة حد الحقيقة ومن الخيال الخرافي الكاذب إلى المعنى الحسي الصحيح حتى يبلغ ما هو عليه من هذا العصر (١)"

٦

مقابلة تاريخ الشعر العربي مع تاريخ الشعر الإفرنجي

وبعد أن ينتهي كلام فيكتور هيجو الذي ضمنه الحداد في مقالته ،يأخذ الحداد في بيان تاريخ الشعر العربي مقارناً إياه مع الشعر الإفرنجي وذلك بما يعرفه هو من هذا التاريخ ويفسّره بالطريقة ذاتها التي ثقفها من فيكتور هيجو ،وهي معرفة تعكس عمقاً في البحث والتمحيص فيقول:

"أما الشعر العربي فلم يكن في شيء من تاريخ الشعر الإفرنجي ،في تباعد أطواره وشدّة التباين في تنقله، من حال إلى حال ،على ما بينه الكاتب الفرنساوي فيما نقلناه من كلامه ، وإنما شعر منفرد في نفسه، نشأ في بلاد العرب بخصوصها وأجراه الله على ألسنةِ العرب وحدهم ،دون غيرهم لم يأخذوه عن أحد متسلسلا كما أخذ الإفرنج شعرهم عن اليونان ،والرومان ومَن قبلهما ، ولم يأخذ أحدٌ عنهم ولم يأُخذوا عن غيرهم ،بل بقي منحصراً فيهم تناولوه إرثاً عن الطبيعة في بداوتهم ، ولم يورّثوه أحداً من غير قبائلهم والنّاطقين بلسانهم ،وجل ما كان من تقلُّب أطواره عندهم أنَّه لما انتقل إلى الحضر أو لما انتقلت بداوة العربي إلى الحضارة المدنيّة ،لم يطرأ عليه سوى تغيير بزّته بتنقيح بعض الفاظه، وتخيّر السهل المأنوس منها ، وإطراح الكلم الوحشي الذي تأباه الحضارة وآداب اجتماعها ،وأما ما سوى ذلك من نسق نظمه وديباجة معانيه وطرائق انشائه ، وبيان المقاصد منه ،فإنَّه لم يكد يتغير في شيء منها ،إلّا ما دعت إليه حالات الحضارة في بعض مصطلحاتها ومستجد عاداتها ،بل هم لا يزالون على المجرى العربي القديم في وصف الديار والبكاء على الاطلال والتشبيب بالمحبوب وتقسيم الغزل والنسيب بين أيدي ما يقصدونه من الأغراض ونظم الحكم والأمثال

(١) البيان، ص ٣٠٥.

في أثناء ما يعرض لهم من صنوف الكلام وربما خرجوا عن ذلك إلى ما أحدثتهم لهم الحالة من وصف الرياض والقصور ومجالس الشراب وأمثالها ؛مما لم يكن معروفاً في الجاهليّة ،أو كان مخصوصاً بالمترفين ،منهم ممّن اتفقت لهم مثل تلك الحالات ،وبالجملة فهم قوم جرى الشعر على ألسنتهم كاملاً فيما نرويه عنهم إلا إذا كان قبل ذلك شيء لم يبلغنا مما لم ينقله لنا التاريخ ،ولعل أول ما نطقوا به من هذا النوع المعروف بالرجز ،وهو منزلة بين الشعر والنثر ، يلتزمون في كل بيت منه قافيتين فقط ،على نحو ما نراه في الشعر الإفرنجي ليومنا هذا ثم تطرقوا منه إلى سائر الأوزان يلتزمون فيها القافية الواحدة في جميع أبياتها . وكان شعرهم في أول أمره مقصوراً على حوادث أنفسهم ،والإبانة عن عما يكنّه الشاعر من شكوى أو وجدان أو حكاية أو واقعة غراميّة أو حماسيّة ،يبرزون المعاني الثرية في ذلك كما تصور لهم نفوسهم ،مجردة عن الاختلاق ، ودعوى غير الحقيقة ،وحكاية حوادث وهميّة مما درج عليه المولّدون بعد ذلك ،وإذا خرجوا إلى المدح لم يمدحوا الرجل إلا بما فيه ،ولم يذكروا من حسناته ،إلا ما صدر عنه فعلاً كما أنّهم إذا رثوا مفقودا ، لم يرثوه إلا بما تتفجّع به قلوبهم من الحزن عليه ،وبيان صفاته وأخلاقه وصفاته كما نرى ذلك في قصائدهم الجاهليّة والمخضرمة كقصائد زهير في هرم بن سنان ، وقصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول واستعطافه ،وأمثال ذلك فإنك لا تجد هناك اختلافاً في المدح ولا تطرّفاً في الاطراء ولا افراطاً في الثناء ؛إلا ما جرى على طريق الاعتدال ،ولم يخرج عن حد المقبول السائغ في الافهام ،على غير ما صار فيه من المدح بعد ذلك من الغلو الزائد ،وكثرة التشعّب في ابراز المعاني الخياليّة والصور الوهميّة والخروج تارة إلى المحال ،حيث يجعل المادح ممدوحه حاكماً على الدهر ،ويضع في يديه أزمة الأقدار ويقرب عليه تناول النجوم لو أرادها ،ويوصل حد حكمه إلى الشمس والبدر توسّعاً في المعاني وتفنناً في إيرادها وتصويرها ؛كأنّهم لمّا انتقلوا من حالة البداوة الجاهليّة التي هي البساطة والفطرة ، إلى حالة الحضارة التي هي سلم الارتقاء ومدرجة التأنق في سعة العيش وترف النّعمة ورأوا غير ما كانوا يألفونه من أبهة الملك وزينة الحضارة ،انتقلت معانيهم الشعرية أيضاً على هذا النّسق ،تدرّجاً معهم في المدينة وجعل الشاعر يزخرف معاني شعره ،كما يزخرف منزله، ويتفنن في إبراز مقاصده ،كما يتفنن في طعامه ولباسه ،ويرتقي بها في سلم الخيال الذي هو تلو الحقيقة كما ارتقى في سلم الحضارة التي هي رديف البداوة والفطرة إلى أن بلغ الشعر عندنا مبلغه المعروف لهذا العهد لم يتحوّل عن حقيقة أصله ونسق نظمه إلا هذا التحول النّسبي [1]".

ينتهي الحديث عن تاريخ الشعر العربي كما نلاحظ عبر مقارنة مع الشعر الافرنجي، في أصل نشأتهما المختلفة ،فالشعر العربي لم يؤخذ عن غيره كما هو الافرنجي

(١) البيان، ص ٣٣٥- ٣٣٧.

ويمكن للرجز عند العرب أنْ يكون مشابهاً للشعر الإفرنجي بسبب تشابه نظام القافية ،ومن حيث الموضوعات فهي متشابه مع اختلاف طبيعة العرب في المدح مثلاً .

وبعد أن ينهي الحداد المقارنة بين تاريخ الشعرين الشعر العربي والشعر الإفرنجي ،فإنَّه يبدأ مقارنته بينهما في جانبين : الجانب اللفظي والجانب المعنوي ، أمَّا في **الجانب اللفظي** فإنَّه يقابل **الوزن الشعري** ، **والقافية و الشكل الشعري** أو ما أسماه **الشعر الأبيض** ،وهذا ما ستبينه الدراسة .

٧

مقابلة الوزن الشعري :

لقد توقف الحداد عند الوزن الشعري بين الشعر العربي والشعر الافرنجي وِقفة الباحث ،الذي يمتلك المعلومة الدقيقة ،حيث يوظفها من أجل الوصول إلى المقارنة المبنيّة على وعي الظاهرة ومدى وجودها أو عدمه في الأعمال المقارن بينها ،ولعل هذا الحس المقارني الذي يتمتع فيه الحداد هو ما جعل دراسته تقدم قراءة دقيقة في مدى التشابه والاختلاف بين هذين الشعرين، ولنرَ كيف يقدم الحداد وجود الوزن الشعري عند العرب من جانب والافرنج من جانب آخر ،فيبدأ بتعريف مصطلح "اللفظي " ثم يقف عند مظاهر الوزن تفصيلاً وتوضيحاً في الشعرين ،يقول :

" أما اللفظي فهو ما تعلَّق بالوزن والقافية ،فإنَّ وزن الشعر عندهم يتألف من الأهجية اللفظية ؛وهي كلُّ نبرةٍ صوتيّة تعتمد على حرف من حروف المد ،سواءٌ كان ذلك الحرف وحده أو مقترناً بحرف صحيح ،ويسمون هذه الأهجية في اصطلاحهم الشعري" أقداماً" وبها تنقسم أبحر الشعر عندهم على حسب أعدادها في البيت ؛فيكون أطولها ما تركب من اثني عشر هجاءً ،وهو ما يسمونه بالوزن الاسكندري نسبة إلى الإسكندر ،وأقصرها ما تركب من هجاء واحدٍ فقط ،بحيث يسوغ للشاعر عندهم أنْ ينظم القطعة فيكون أوّل أبياتها اثني عشر هجاءً ثم ينزل فيها بالتدرج إلى أن يختمها بهجاء واحدٍ على ما يشبه بعض التواشيح الغنائيّة عندنا تقريباً ،ولكن اكثرَ الأوزان شيوعاً بينهم هو الوزن الإسكندري ومنه اكثرُ قصائدهم ورواياتهم ،ولكن يشترط في البيت الذي يكون من هذا الوزن أن ينتهي كل شطرٍ منه عند الهجاء السادس ،بحيث لا تنقطع الكلمة في وسطه إلى شطرين بخلاف الشعر العربي ،الذي يجوز وصل الشطرين منه بكلمة واحدة وهو المعروف عندنا بالمدوّر(١)،ولكنّهم يخالفون العرب في هذا القيد، بأنهم يصلون بين الأول والثاني في المعنى واللفظ جميعاً ،بأن يجعلوا الفاعلَ قافيةً للبيت الأول ويضعوا مفعوله في أول البيت التالي بحيث يضطر القارئ له أنْ لا

(١) البيان، ٣٣٨.

يقف عند القافية ،بل يصلها بما بعدها من الإلقاء وهو المذهب الذي أنشأه فيكتور هيكو أخيراً ،وعليه أكثرُ شعرائهم اليوم وبخلاف ذلك العرب ،فإن هذا يُعَدُّ عندهم من العيوب[1] ولا يتسامحون بوقوع شيء منه في أشعارهم ،ولو وقع في كلام أفحل شعرائهم كالنابغة الذبياني ،حيث يقول :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يومِ عكاظ أني
شهدت لهم مواقف صادقاتٍ شهدن لهم بصدق الود مني .

ولا يخفى أنَّ إقامة الوزن في الشعر الإفرنجي على عدد الأهجية مما يسهّل نظمَه كثراً ويبيح للشاعر أنْ يقدم ويؤخّر في ألفاظ البيت ما شاء ويضع في أثنائه اللفظة التي يريدها ،ولا يختل معه الوزن، عكس الشعر العربي ؛الذي يعتمد وزنه على التفاعيل من الأسباب والأوتاد فإن تقديم الحرف الواحد أو تأخيره قد يؤدي إلى اختلال الوزن بجملته أو ينقل البيت من بحرٍ إلى بحرٍ آخر كما هو معروف عند أرباب هذا الفن[2]" .

٨

مقابلة القافية :

وبعد مقابلة الوزن الشعري ينتقل الحداد إلى **القافية** في الشعرين ، ويقرأ أوجه الاختلاف بينمها، وأهمية القافية في كلا الشعرين ،يقول :

"ومما نخالف الإفرنج فيه مخالفةً ، لفظية مسألة القافية، فإنها عندهم لا تلزم الشاعر في أكثر من بيتين ،ولذلك كان شعرهم أشبه بالأراجيز عندنا على ما قدمناه قريبا ،ولكن لهم فيها قيداً آخر لا وجود له عندنا وهو أنّهم يقسمون القوافي إلى مؤنّثة ومذكّرة ويقتضون أنَّ كلَّ قوافي القصيدة مؤنّثة فمذكّرة على التوالي ،بحيث لا يتوالى بيتان على قافية مذكرة أو مؤنّثة ، ويريدون بالقافية المؤنّثة ما كانت مختومة بحرف علّة وبالمذكّرة ما كانت مختومة بحرف صحيح ،فهم ابداً يعاقبون بين هذه القوافي إلى ختام القصيدة [3]"

ويتابع الحداد هذه المقابلة في القافية بين الشعرين؛ معللاً ما عندهم من نظام في تعدد القوافي ،وشكواهم من هذا النظام ، بينما العرب يفتخرون به على الرغم من نظامه الصارم عندهم فيقول :

" وإنما جعلوا أبيات شعرهم على قوافٍ متعددة ؛لأن لغتهم ضيقة قليلة الألفاظ لا تتسع لالتزام قافية واحدة في القصيدة الطويلة ،على خلاف الشعر العربي ، الذي له من اتساع لغته واستفاضة ألفاظها أكبر نصير وأوفى مددٍ على تعدد قوافيه والتزام الحرف الواحد فيها .

---

(١) البيان، ٣٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ٣٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ٣٣٩.

ومن الغريب أنّهم مع توسّعهم في القافية بكثرة تغييرها وعدم التزامها وجواز تكرارها نجدهم أكثر شكوى من صعوبتها وقلة الظفر بالمحكم المتين منها ،حتى أنَّ فولتير نفسه وهو من أكبر شعرائهم كان يتظلم منها ، ويسميها النِّير الثقيل والظالم الشديد ،إنَّ شاعرهم "بوالو " لما امتدح موليير الشاعر الروائي الشهير قال له : علّمني يا موليير أين تجد القافية " ؟، وما ننكر أنَّ شعراء العرب يفتخرون بالقافية في شعرهم ويتباهون بالوقوع على المحكم منها ويمدحون شاعرهم بأنَّ القوافي تنقاد له ،وأنه يضعها في أماكنها ،ولكن شتان بين مَنْ يفخر بالقافية وهو يلتزمها في كلِّ أبيات قصيدته وبين من يفخر بها ويعدها نِيراً ثقيلاً وهو لا يلتزمها إلا في كلِّ بيتين من أبياته [١]"

٩

الشعر الأبيض في الشعر الإفرنجي

واستكمالاً للمقابلة بين الشعرين في الجانب اللفظي يتحدث الحداد عمّا يسمونه الإفرنج "الشعر الأبيض " ويعدّه مقابلاً للموشحات عند العرب، يقول:

" ثم إنَّ عندهم خلا ذلك نوعاً من الشعر يسمونه " **الشعر الأبيض**" وهو الذي لا يلتزمون فيه قافيةً بل يرسلونه إرسالاً ،ولا يتقيدون فيه بغير الوزن وأكثر شيوع هذا النوع عند الانجليز ، وعليه أغلبُ منظومات شاعرهم شكسبير أخذاً عن الشعر اللاتيني القديم ،ومن اصطلاحهم في النظم أنّهم يخالفون بين أبيات القصيدة في قوافيها بأن يفرقوا بين كل بيتين من قافية واحدة ببيتن آخرين من قافية أخرى على ما يشبه نسق الموشحات الأندلسيّة عندنا ،إلا أنّهم توسّعوا في المقارنة بين الأوزان توسّعاً زائداً ،حتى صاروا ينظمون المقطوع الواحد من الشعر على عدة أوزان مختلفة لا ينطبق مجموعها على الذوق السماعي ،إذ بينما الأذن تسمع وزناً في بيت إذا بها قد انتقلت فجأة إلى وزن آخر ومنه إلى غيره دون أن تستقر على وزنٍ معلوم وهو مما لا يوجد عندنا إلا في الموشحات المهجورة التي لم يعد أحد ينسج على منوالها في هذه الأيام [٢]"

وفي نهاية المقابلة بين الشعرين في الجانب اللفظي يؤكد الحداد هذا التباين الذي يتطلبه الاختلاف في طبيعة الشعرين أو ما يسميه مقتضيات القواعد الخاصة بكل شعر ، يقول:" هذا مجمل ما نباين الإفرنج فيه ؛من حيث اصطلاح الشعر اللفظي ومقتضيات قواعده وأوضاعه . [٣]"

---

(١) البيان، ص ٣٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص، ٣٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٢.

التزام الحقائق عند الإفرنج والغلو عند العرب :

من نتائج المقابلة التي يقيمها الحداد بين الشعرين العربي والافرنجي ، يجد أنَّ الفرنجة لا يبالغون في شعرهم في حديثهم عن الشيء، كما هو في الشعر عند العرب ولا سيما بعد الإسلام،فهم يشبهون العرب في شعرهم الجاهلي الذي يرى الحداد أنّه لا مبالغة فيه في المدح أو الوصف أو الهجاء ،أو غيرها من الموضوعات ، فيقول:

" وأما من الجهة المعنوية ؛فأوّل ما يخالفوننا فيه ،إنّهم يلتزمون الحقائق في نظمهم التزاماً شديداً ،ويبعدون عن المبالغة والإطراء بعداً شاسعاً ؛فلا تكاد تجد لهم غلّواً ،ولا إغراقاً ،ولا تشبيهاً بعيداً ،ولا استعارة خفيّة ،ولا خروجاً عند حد الجائز المقبول من المعاني الشعريّة في جميع وجوهها ومقاصدها ؛فهم في هذا القبيل أشبه بالعرب في جاهليتهم ،إذا مدحوا لم يبالغوا ،وإذا وصفوا لم يغربوا وإذا شبّهوا لم يبعدوا في التشبيه ،وإذا رثوا لم يتعدّوا صفات المرثي وأخلاقه في المعاني السهلة المقبولة، على خلاف ما صار إليه شعر العرب بعد الإسلام ؛من الإغراق والغلو والمغالاة في الوصف إلى ما يفوت حد التصور والإدراك ،مما أشرنا إلية في فاتحة هذا المقال.(١) "

ولكن على الرُّغم من المخالفة بيننا وبينهم فإن هناك التقاءً واتفاقاً كما يرى الحداد ، حيث الشعر العربي يشمل كلَّ ما عندهم من مميزات بينما شعرهم ليس كذلك ،حيث يؤكد الحداد هنا تفوّق الشعر العربي على الافرنجي ، يقول:

"غير أننا إذا خالفناهم في أكثر هذا الأمر فنحن معهم على اتفاق في بعض أطرافه أي أنَّه يجوز عندنا كلُّ ما يجوز عندهم من هذا النحو ولا يجوز لديهم كل ما يجوز لدينا منه ،بحيث كنّا جامعين شعرهم من هذا القبيل وزائدين عليه ما انفردنا به دونهم من ذلك الإغراب وكنا نقدر أنْ نقول " أعذبُ الشِّعر أكذبُه وأحسنُه وأصدقُه" وهم لا يقدرون أنْ يقولوا إلا أنَّ أحسنَ الشعر أصدقُه فقط. (٢)"

ويتوسّع الحداد في مقابلته حيث يأخذُ مختاراتِ أبي تمام " الحماسة" كنموذج على توافق الشعريين في بساطة المعاني وصدق التشبيه حيث المفارقة كما يرى الحداد في أنَّ شعر العرب في بدايته يشابه شعر الإفرنج في مدنيّتهم ، يقول:

"ومن وقف على ما في ديوان الحماسة في شعر العرب في الجاهليّة و صدر الإسلام ووقف على شعر الإفرنج اليوم رأى أنَّ لا فرق بين الشعرين في بساطة المعاني

(١) البيان، ص٣٦٣

(٢) المصدر نفسه، ص٣٦٣.

وصدق التشبيه، وحقائق الوصف وعجب كيف يكون كمال الشعر عند الافرنج في عزّة مدنيّتهم وتمام حضارتهم مشابهاً لبدء نشأته عند العرب في إبان جاهليتهم وخشونة بداوتهم [١]"

ويرى الحدَّادُ أنّ المفارقة بين الشعريين بدأت من زمن شعر المتنبي الذي كان بداية الإغراب في المعاني والوصف والمبالغة في المجاز والإيهام ،حيث يكون ذلك في موضوعات كالغزل والمديح ،إذ توافق هذه الموضوعات الخيال والوجدان الخفي ،ويساعد على ذلك اللغة ،واتساع تراكيبها ، وهذه ميزة العربيّة كما يرى الحدَّادُ ،يقول :

"على أننا إذا شابهنا الافرنج في شعر جاهليّتنا من حيث البساطة والتزام الحقائق وباينّاهم كيثراً في شعرنا الأخير من عهد المتنبي إلى اليوم من حيث الاغراب في المعاني والمغالاة في الوصف بما يخرج الكلام عن حد الحقيقة أحياناً أو يُلبس الحقيقة الصغيرة من الثوب الطويل الضافي من المجاز والإيهام حتى يكاد ينكرها الخاطر ،وتبدو له على غير وجهها المعروف إلاّ أنّ ذلك لا يرد في شعرنا إلا من بعض الوجوه المعدودة كالغزل والمديح وأشباههما مما يوافق الخيال ويجري مع وهم النّفس ويقصد به تصوير الوجدان الخفي أكثر مما يقصد به تقرير الحقيقة الراهنة ؛ولذلك تفنّن فيه شعراء العرب وتسابقوا إلى الصور الخياليّة منه يصوّرونها في كل قالب ويأتون بها من كل سبيل ،وقد آنسوا ميدان الخيال فسيحاً فجالوا ووجدوا مجال القول ذا سعةٍ فقالوا وساعدتهم أساليب اللغة واتساع تراكيبها وبلاغة تعبيرها وجزالة ألفاظها ووفرة الاستعارات والكنايات فيه ؛فأرسلوا أفراس قرائحهم مطلقة العنان ،وأجالوا بصائرهم في سماء المعاني فاستنزلوا النجم من العنان ،أما سوى ذلك من تقرير الوقائع ،وإيراد الحكم وضرب الأمثال وتصوير الحقائق ووصف المشاهد فإنّهم لا يكادون يخرجون عن الطبيعة ولا يحيدون عن محجة الصدق ،والقصد ولا يأتون إلا بما تلقيه البداهة ويمليه الجنان على اللسان ،فهم من هذا القبيل يشبهون الافرنج وإنْ لم يشبههم الافرنج من غير هذا القبيل [٢]".

١١

طول المقدمات في الشعر العربي وخلو الشعر الإفرنجي منها :

مثلت المقدمة في القصيدة العربيّة موضوعاً للمقابلة في مقالة الحداد ، فهي ميزة وخصيصة لهذه القصيده و لاسيما قصيدة المدح ،وهي ميزة مفقودة في الشعر الإفرنجي ،وإذ جاءت فهي نادرة ومقتضبة ،ويعزو الحداد هذه المفارقة بين الشعرين أنَّ الشعر الافرنجي يندر فيه شعر المدح ، حيث يرونه عيباً على خلاف العرب ، يقول:

---

(١) البيان، ص٣٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٦٤.

ثم إنّ من اصطلاح الافرنج أنْ لا يقدموا شيئاً بين أيدي أغراضهم الشعريّة بل يأتون بها اقتضاباً من غير تمهيدٍ ولا تقدمة على خلاف ما يفعله أكثرُ شعراءِ العرب من تقديم الغزل والنّسيب والحكم وأمثالها أمام ما يقصدون من المدح ،إلى أن يخلصوا منها ،إلا أنَّ ذلك ليس بالأمر اللازم عندنا ،وكثيراً ما يأتي الشاعر بغرضه من مفتتح قصيدته دون توطئة ولا تمهيد ؛ومما يخالفوننا فيه إنّهم يتجافون عن الفخر في قصائدهم ولا يستعملون التمدح في كلامهم بل يعدونه عيباً ونقصاً خلاف العرب الذين جروا على هذا الأمر دهراً طويلاً وجعلوا له في أشعارهم باباً خاصّاً على أنّه مع كونه مباحاً عند العرب فهو اليوم من المذاهب المرغوب عنها لما في طبيعة العصر ،من إبائه إلا إذا دعت إليه ضرورةٌ تدفع الشاعر إلى مثله في مقام النّضال والمدافعة عن الأحساب [١] ".

١٢

نظم الروايات التمثيلية يخص الشعر الإفرنجي :

وتصل مقابلة الحداد إلى الحديث عن الشعر التمثيلي أو ما يسميه " الروايات التمثيليّة " حيث كان مصطلح الرواية في تلك الفترة يدل على المسرحيّة أو التياتير[٢]، إذ يرى الحداد أنّ الإفرنج يفوقون في هذا العرب ، وينفردوا به، وهو اسمى درجات أبواب الشعر لأن التمثيليّة " المسرحيّة بحاجة إلى براعة في النظم وترتيب الفصول ،مما يتطلّب شاعريّة تمتلك القدرة على النظم والتأليف ، وهذا ما لاتقضيه القصائد والمقاطع المستقلّة ، يقول:

"ومما فاق الإفرنج فيه في مقام الشعر وانفردوا به دوننا نظم الروايات التمثيليّة واعتدادها من أبواب الشعر وأسمى درجاتها وأشدِّها دلالة على براعة الشاعر وحسن اختراعه ،وهم مصيبون في هذا الاعتقاد كلَّ الإصابة لأنَ في نظم الرواية الشعريّة من الدلالة على الفضل والإبداع أكثر مما في نظم الديوان من القصائد والمقطعات ،إذ هي تقتضي حسن الاختراع ،في تأليف حكاياتها وبراعة النّظم في وضع أبياتها ولطف التّصور في بيان شعائر ممثليها واختلاف حالاتهم ودقة النظر في تبويب فصولها وتوثيق عقدتها ووصل بعضها ببعض مما يستلزم رويّة طويلة وعارضة شديدة وقدرة فائقة في التصوّر والنّظم والتأليف على غير ما تقتضيه القصائد والمقاطع المستقلة ،التي يقصد بها النّاظم غرضاً واحداً ؛فيأتي به في أبيات معدودة لا يضطر فيها عقد إلى حكاية ولا إلى تمثيل عواطف متعددة ولا إلى إقامة نفسهِ في موقف كلِّ شخص من أشخاص الرواية يتكلم بلسانه وينطق عن شعوره ويضع في دوره التمثيلي ما كان ينبغي أن يقوله صاحب الدور الأصيل ، وقد انتقل هذا الفن إلينا في

---

(١) البيان، ص ٣٦٤-٣٦٥

(٢) العرود، أحمد ، خطاب الجنس الأدبي في النقد العربي الحديث: البداية والتأسيس، جرش للبحوث والدراسات، مجلد ١٠،عدد٢، حزيران ،٢٠٠٦، الصفحات ١٥٩- ١٨٠.

هذه الأيام واشتغل به جماعةٌ منّا نظموا فيه الروايات الشعريّة وأخصّهم المرحوم المأسوف عليه الشيخ خليل اليازجي في روايته "المروءة والوفاء" إلا إننا لم نبلغ فيه مبلغ الافرنج بعدُ ، ولا وصلنا إلى ما وصلوا إليه من درجة كماله واتقانهِ.[١]"

١٣

مزيّة الشعر العربي وصف الشيء ومزيّة الشعر الإفرنجي وصف الحالة

ومن المفارقات بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي كما يرى الحداد ،ما أطلق عليه "وصف الشيء" و"وصف الحالة " ولعل الحداد يقصد بوصف الشيء" الذات" وما يتعلق بها من مميزات وصفات تتصف بها ، أما "وصف الحالة " فهي وصف مجموعة من الذوات وما يدور بينها من صراع مثل المعارك والأحداث حيث يسبر الشاعر الافرنجي دواخل هذه الذوات (الأشياء) التي يصفها ، يقول:

ومن الفرق بيننا وبينهم في نظم الشعر أنّنا نفوقهم في وصف الشيء وهم يفوقوننا في وصف الحالة أي أننا إذا وصفنا الأسد أو الفرس أو القصر أو الفتى الجميل أو الغادة الحسناء أتينا في ذلك بأحسن مما يأتون به وتوسّعنا فيه توسّعاً لا يقدرون هم على الاتيان بمثله. وأنّهم إذا وصفوا حالةً من قتالِ رجلين أو معركةِ جيشين أو مقابلة محبّين ،أو غرق سفينة أو مصاب قومٍ جاءوا في ذلك بأحسن مما نجيء به ،وتوسّعوا فيه بما لا نقدر أن نسبقهم إليه [٢]".

ومن أجلِ أنْ يؤكّد الحداد رؤيته في هذا الفرق بين الشعريين ،فإنه يقدم أمثلة يختارها من الشعريين كنماذج على ما يذهب إليه من مقابلة، يقول:

"ومثال ذلك ،أنَّ المتنبي وصف الأسد بما لا يقدر إفرنجي على وصفهِ بمثله ،وهوكو وصف معركة واترلو بما لا يقدر شاعر عربي على الإتيان بنظيره ؛فهم بذلك أقدرُ على تصوير الوقائع ،ونحن أقدرُ على تصوير الأعيان ؛لإننا إذا وصفنا الشيء بلغنا من بيان صفاته إلى أدقها وأخفاها وتوصّلنا من إدراك معانيه إلى أصغرها وأدناها ؛حتى لا نُبقى منه باقيةً ولا تفوتنا منه حقيقة ،وهم إذا وصفوا حالةً أو موقفاً توصّلوا إلى أخفى دخائله ،وأبانوا عن أدق خفاياه وبسطوا لعين الفكر ما لا تكاد تبصره عين الحس من غوامضه وسرائره ، ذلك لأنهم يتبعون وجدانات النّفس إلى أقصاها ، فلا يفوّتون منها جليلاً ولا دقيقاً ،وهي المزيّة التي

(١) البيان، ص،٣٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ص،٣٦٥-٣٦٦.

يعتبرون الشاعر بها ،ونحن نشير إلى تلك الشعائر إشارة إجمال ونترك إلى القارئ تمام التّصور.[١] "

١٤

البديع اللفظي والمعنوي مزيّة الشعر العربي

ولكن ،إذا ما وصل الحداد مقابلة البديع بأنواعه بين الشعرين ،فإنَّه يجعل البديعَ ميزةً للشعر العربي انفرد فيه الشاعر العربي دون الافرنجي ،ويرى أنَّ الحديث فيه يطول ، وكل ذلك لصالح الشعر العربي ،يقول:

"هذا ولو تتبعنا بيان كلٍّ فرقٍ بيننا وبين الافرنج من مثل البديع اللفظي والمعنوي مما لا وجود له عندهم والتفنن في إيراد المعاني على أساليب كثرة مما انفردنا به دونهم وأوردنا على كل ذلك شاهداً من كلامنا وكلامهم لضاق بنا المجال وخرج بنا نطاق البحث إلى ما يفوت حجم هذه المجلة ويستغرق كتاباً بأسره .[٢]"

١٥

نتيجة المقابلة "تفوق الشعر العربي "

يُلحظ من المقابلة التي أقامها الحداد أنَّه كان يميل إلى إظهارِ الشعرَ العربي على الشعر الإفرنجي على الرغم من وجود بعض المميزات للشعر الإفرنجي التي كان يعترف فيها الحداد نفسه ،مثل وجود الشعر الأبيض ،والروايات التمثيليّة ، وقدرتهم على وصف الحالة وعدم الغلو في هذا الوصف ،ولكن يمكن أن نعذر الحداد بما ذهب إليه بسبب الروح القوميّة التي يحس بها وإعجابه باللغة العربية وميزتها عن غيرها من اللغات حيث هي أتمُّ لغةٍ كما يقول :

" ولكن الذي يؤخذ من جملة ما أوردناه أنّهم قوم امتازوا عنّا بشيء وامتزنا عنهم بأشياء ،وإننا قد جمعنا من شعرهم أحسنَه ولم يجمعوا من شعرنا كذلك ،وهي لا شكَّ مزيّة اللغة العربيّة التي اختصت بما لم تختصَّ به لغةٌ سواها من غزارة اللفظ ووفرة ضروب التعبير واتساع مذاهب البيان ،حتى لقد سمّاها الإفرنج أنفسهم "أتمَّ لغة في العالم "وكفى بذلك بيانًا، لفضلها على سائر اللغات ، ومن ثم بياناً لفضل شعرها على سائر الشعر وكلُّ فتاة بأبيها معجبة ، والله أعلم. [٣]".

(١) البيان ، ص، ٣٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ص، ٣٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٦- ٣٦٧.

على أيٍّ حال فإنَّ ما وصل إليه الحداد من حكم على الشعر العربي والشعر الإفرنجي ، يمثل وجهة نظر الباحث المقارن الذي يضع فرضيته من أجل أنْ يقيم مقارنته ويصل إلى نتائج تمثل ما قدمه من عللٍ ونتائج تمثل منهجه المقارن.

فالحداد كما قدمت الدراسة وظّف معارفه الجمّة في تاريخ الشعر العربي والشعر الإفرنجي من أجل أن يقيم مقارنة (مقابلة) تمثّل فتحاً في تاريخ النقد الأدبي المقارن الحديث عند العرب ،حيث ساهمت هذه التجربة في فتح طرق شتى في الدراسات المقارنة العربية فيما بعد ،ونحن لا نحاسب الحداد هنا على ما قدمه من معلومات سواء كانت موضوعيّة أو فيها مغالاة ،ولكننا نقدمه دارساً مقارناً تبنى منهج المقارنة(المقابلة) الذي يتطلب سعة الثقافة والمعرفة والقدرة على الوقف على نقاط التشابه والاختلاف بين الظواهر التي يقارن بينها.

وبعد ومما سبق، فإن نجيب الحداد كان حلقة رائدة من حلقات الدرس المقارن العربي في عصر النّهضة العربيّة ،ولعل ما قدمته الدراسة من أجل بيان قيمة وأهميَّة هذه الحلقة أعادت إلى الحداد دوره الذي حاول أكثر من دارسٍ تجاوزه لسبب أو لآخر وبيّنت ما تمتعت به هذه المحاولة من سبق زمني وسبق علمي بنى على منهجيّة قدمت نموذجاً في الدرس العربي المقارن في عصر النهضة .

ثبت المصادر

- أبو العدوس ، يوسف، (١٩٨٧)،نموذج مبكر للنقد الأدبي المقارن في الثقافة العربية المعاصرة : قراءة لكتاب قسطاكي الحمصي "منهل الوراد في علم الانتقاد "، أبحاث اليرموك ، سلسلة الآداب واللغويات .
- بهّي، عصام ،(١٩٩٦)، طلائع المقارنة في الأدب العربي الحديث ، الطبعة الأولى ،دار النشر للجامعات ، القاهرة.
- تيغم، فَانْ، (دون تاريخ) ، الأدب المقارن ، تعريب سامي مصباح الحسامي، منشورات المكتبة العصريّة ، صيدا – بيروت .
- الحداد، نجيب،(١٨٩٧)، مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي ، مجلة البيان، الأعداد٧، ٨،٩
- الحداد ، نجيب، (٢٠١٤) ،الرجاء بعد اليأس، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م.
- الحداد، نجيب ،(٢٠١٢)، ملكة القلوب ، مؤسسة هنداوي ، ٢٠١٢م.
- الحداد، نجيب ، (٢٠١٨)، صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة هنداوي ، ٢٠١٨م.
- الحداد، نجيب ،(٢٠١٣)، ثارات العرب ، مؤسسة هنداوي ، ٢٠١٣م.
- الحداد (مترجم) (٢٠١٩)، ديماس ، الكساندر ، (٢٠١٩)، الفرسان الثلاثة ، مؤسسة هنداوي ، ٢٠١٩.م
- الحداد (مترجم)(٢٠٢٠)،دو لامارتين، ألفونس ، غصن البان في رياض الجنان.
- الخالدي ، روحي ،(١٩٨٤) ،تاريخ علم الأدب عند الفرنج والعرب وفيكتور هوكو، تقديم حسام الخطيب، ط٤، دمشق.
- الخطيب ، حسام ، (٢٠١٨)،آفاق الأدب المقارن عربيّاً وعالميّاً ، الطبعة ٣ ،رام الله.
- الدسوقي ، عمر، (٢٠٠٧)،نشأة النثر العربي الحديث وتطوره، دار الفكر ،دمشق.
- السيد أحمد، عزت،(٢٠٠٦)،المدخل إلى عصر النهضة العربيّة، منشورات جامعة تشرين ،الجمهوريّة العربيّة السورية .
- عامر ،عطيّة ،(١٩٨٣)، تاريخ الأدب المقارن في مصر ، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الرابع.
- عباسة ، محمد ،(٢٠١٧)،المدرسة العربيّة في الأدب المقارن، حوليات التراث، العدد١٧، جامعة مستغانم .
- العرود، أحمد ،(٢٠٠٦) خطاب الجنس الأدبي في النقد العربي الحديث: البداية والتأسيس، جرش للبحوث والدراسات، مجلد ١٠،عدد٢، حزيران .
- العرود ،أحمد، (٢٠٠٧) ،محاضرات في الأدب المقارن، المركز القومي للنشر ،إربد.

- علوش، سعيد ،(١٩٨٧)، مدارس الأدب المقارن ، دراسة منهجيّة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ،بيروت .
- الغضبان ، عادل ، (١٩٥٦)، الشيخ نجيب الحداد ، دار المعارف بمصر.
- غويار، ماريوس، (١٩٧٨) الأدب المقارن ، ترجمة هنري زغيب ، منشورات عويدات ، ط١، بيروت– باريس.
- المنفلوطي ، مصطفى، (دون تاريخ) مختارات المنفلوطي ،دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.